ترجمات

الأعمال الموسوعية في العالم الإسلامي: أسئلة وإشكالات

- جوزيف فان إس | Joseph Van Ess

جامعة توبنغن (ألمانيا)

تعريب:

يوسف مدراري

مركز نهوض للدراسات والنشر

NOHOUDH CENTER FOR STUDIES AND PUBLICATIONS

جميع الحقوق محفوظة © ٢٠١٨

All rights reserved © 2018

الأعمال الموسوعية في العالم الإسلامي:

أسئلة وإشكالات

- جوزيف فان إس | **Joseph Van Ess**

جامعة توبنغن (ألمانيا)

تعريب:

يوسف مدراري

الملخص[1]:

تعالج هذه المقالة موضوعَ الكتابات الموسوعية في العالم الإسلامي، وتلقي الضوء على هذا النوع من التأليف الذي شاع في فترات معينة.

وقد تناولت هذه المقالة الأسبابَ الداعية إلى الكتابة الموسوعية في العالم الإسلامي، سواء في الفترة المعاصرة أو الفترة الوسيطة، بالإضافة إلى الفئة المستهدفة بتلك الموسوعات، وعن الكيفية التي تمَّ بها تمثل العمل الموسوعي في أوساط العلماء.

كما تجتهد المقالة في بيان إلى مدى ينطبق اسم "الموسوعة" على بعض المؤلفات الإسلامية الكلاسيكية، وتنَبِّه المقالة إلى ضرورة الحذر في إطلاق اسم "موسوعة" على بعض المؤلفات؛ نظرًا لكون اسم "الموسوعة" ظهر في سياقات تاريخية ودينية معينة في الغرب.

وتجتهد المقالة في الإبانة عن كون الحجم وعدد الصفحات ليس هو المتحكِّم في تسمية كتاب ما بالموسوعة، لذلك قلة من الكتب هي التي يحق تسميتها بالموسوعة[1].

(١) الملخص من وضع المترجم.

مقدمة[1]:

يلاحظ في الدراسات الإسلامية في العالم العربي تضخمٌ كبيرٌ في استعمال مصطلح "الموسوعة"، حيث يتمُّ وصفُ كُلِّ كتابٍ تعددت أجزاؤُه بكونه موسوعةً؛ فيتم وصفُ كلٍّ من كتاب "صبح الأعشى" للقلقشندي و"الخِطط" للمقريزي و"بحار الأنوار" لمحمد المجلسي وغيرها من الكتب الكثيرة بالموسوعات، وغالبًا ما يتمُّ وصف العصر المملوكي بكونه عصرَ الموسوعات.

ولكن السؤالَ الذي ينبغي أن نطرحه: هل كان هؤلاء المؤلفون ينوون فعلًا كتابةً موسوعات؟ هل كان غرضُهم مجردَ تجميعٍ للمعارف المتوفرة في عصرهم؟ وهل يُعتبر الحجمُ وعدد الصفحات هو المتحكمَ في تسمية كتاب ما بالموسوعة؟ وهل من العلمية أن نُطلق اسم الموسوعة (encyclopædia) على كل كتاب تعددت مجلداته؟ هذه الإشكالات التي سيجيب عن بعضها ويضيف إليها إشكالات أخرى كاتب المقال، المستشرق الألماني الغني عن أي تعريف: جوزيف فان إس (Joseph van Ess).

وظاهرة الكتابات الموسوعية ليست مقتصرةً على العصر الوسيط، فقد بادرت العديد من الدول الإسلامية مع نهاية القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين إلى تبني مشاريع كتابة موسوعات وكانت دوافعها مختلفةً، إما دينية أو قومية أو تجارية أو طائفية في بعض الحالات.

ويكمن الفرق في نظر جوزيف فان إس بين تلك الموسوعات وموسوعات العصر؛ في أن تلك الموسوعات المعاصرة مرتبطة بمشاريع وطنية وتمولها الدولة، وفي الكثير من الحالات كان الهدفُ من وراء تلك الموسوعات هو إعادةَ تملك المعارف والتحكم في الذاكرة والتاريخ، بينما الكتابات في العصر الوسيط كانت محكومةً في الغالب بغايات جمع وتصنيف العلوم.

وقد كانت الرغبة في تصنيف العلوم دافعًا مهمًّا، حذا بالعديد من الدارسين المسلمين والغربيين على حد سواء ممن اشتغلوا بدراسة التراث الإسلامي وتحقيقه، إلى محاولة تصنيف

(*) المقال منشورة ضمن كتاب جماعي يحمل عنوان:

Organizing Knowledge : Encyclopaedic Activities in the Pre-Eighteenth Century Islamic World.

تنسيق جيرهارد أندريس (Gerhard Endress) تقديم عبده فيلالي الأنصاري. (بوسطن- ليدن: مكتبة بريل، ٢٠٠٦). (المقال من ص. ٣ إلى ص.١٩.)

(١) المقدمة من وضع المترجم.

الإنتاج المعرفي الإسلامي بالانطلاق من بعض النماذج المسبقة في الغرب، ومن بين تلك النماذج "الموسوعات"، التي رأت النورَ في عصر الأنوار، وارتبطت بسياقات تاريخية ودينية لها تعلُّق وثيق بالسياق الأوربي.

هذه المقالة أصلُها مُداخلة ضمن مؤتمر نظَّمه معهد دراسات الحضارات الإسلامية بلندن، ونشرت في مؤلف جماعي تحت عنوان:Organizing Knowledge: Encyclopædic Activities in the Pre-Eighteenth Century Muslim World من تحرير جرهارد أندريس (Gerhard Endress) وتقديم عبده الفيلالي الأنصاري، ونشرته دار بريل للنشر في ليدن بهولاندا.

ذكر السيد هوت (Monsieur Huet) الذي كان يشغل منصب أسقف أفرانش (Avranches) في فرنسا، وفي نفس الوقت عضو الأكاديمية الفرنسية: «لقد ظهر الكثير من المختصرات، والكثير من المناهج الجديدة، والكثير من الكشافات والمعاجم، والتي ثبطت العزائم في الإقبال على التعلم... فجميع العلوم في هذه الأيام تم اختصارُها في معاجم، ولا أحد يُكلِّف نفسه الخوضَ في تلك العلوم دونَ الاستعانة بتلك المعاجم».

لقد قال السيد هوت هذا الكلام بطبيعة الحال بالفرنسية منذ ثلاثة قرون، في وقت كانت الموسوعة البريطانية (Encyclopedia Britannica) مجردَ حلم، وفي الوقت الذي كان الموسوعيون الفرنسيون ما زالوا شبابًا سذجًا، ويمكن أن نقول أنهم ما زالوا مؤمنين بالله[2].

لكن الألفية الثالثة التي ننتمي إليها تعتبر أقلَّ ميلًا إلى هذه النزعة المتشائمة والشَّكِيَّة التي عبر عنها السيد هوت، فسُوقُ الكتب قد أُغرق بالكتب المدرسية والموسوعات بجميع أنواعها، الموجهة للباحثين المختصين، وكذلك الموجهة لعامة الناس كالسياسيين والصحفيين والمدراء.

فالملاحظ أن علماء اللاهوت والأكاديميين لا يزالون يؤلفون موسوعاتٍ كذلك عن طوائفهم الدينية المختلفة، سواء البروتستانت أو الكاثوليك وحتى الأقباط، على الرغم من كونهم دائمي الحديث عن إجماع الأمة المسيحية، وأن تلك المذاهب تنشد حقيقةً واحدة.

---

(2) Pierre Daniel Huet (1630-1721) ; cf. Huetiana ou pensées divers de M. Huet (Paris 1722), p. 171- 74, quoted after Ann Blair, « Reading Strategies for Coping with Information Overload ca. 1550-1700», in: Journal of the History of Ideas 64 (2003): 22.

الناشرون بدورهم كذلك لا يكفون عن كتابة قصاصات تعريفية يثنون فيها على الموسوعة المُعدّة للنشر، باعتبارها آخر ما جادت به قرائحُ العلماء والباحثين، على الرغم من أن نفس الناشر يُعد في نفس الوقت موسوعة أخرى للنشر، وبالتالي فالمشكل الذي طرحه السيد هوت آنفًا ما زال يرخي بظلاله: هل الموسوعات ظاهرة تنتمي إلى العصر الحديث؟ وهل الموسوعات فعلًا تفتح الباب على مصراعيه لتطورات معرفية كبيرة؟

يمكن القول: إن السؤالين اللذين طرحتهما آنفًا غير وجيهين، ولا يُعبران عن مقصودنا؛ لأن الموسوعات لم تكن حكرًا على عصر معين؛ فالموسوعات وُجدت في جميع العصور، وفي نفس الوقت لم تلق اهتمامًا كبيرًا.

ولكن الدور الذي لعبته الموسوعات في الحضارات غير الغربية لهو موضوعٌ جدير بالبحث؛ لأن إمعان النظر في الإنتاج المعرفي للغير المختلف عنا جغرافيًّا وزمانيًّا يعلمنا الكثير عن ذواتنا.

هل نعيش فعلًا في عصر الموسوعات أو أن مستوانا العلمي بكل بساطة هزيل؟ حيث استبدلنا الموسوعات بالبرامج الفكاهية، هل وجدت عصور أو حضارات أخرى أكثر تعلمًا مما نحن عليه اليوم؟ وكيف تمثل هؤلاء العمل الموسوعي؟ هل كانوا يستعملون الموسوعات؟ ومن هي الفئة التي كان في متناولها تلك الموسوعات؟

هل كان العلماء في عصر المماليك، هذا العصر الذي يلقب في الكثير من المناسبات بالعصر الكلاسيكي للموسوعات في الإسلام (العمري، النويري، وآخرون)، ينتابهم شعور بأنهم متأخرون زمنيًّا؟ وأن ما كتبه المتقدمون يُعتبر أكثرَ أصالة وإبداعًا، بالإضافة إلى كون تراث الأسلاف قد أصبح عرضة للضياع؟ هل كانوا يعتبرون أن من واجبهم إنقاذ ما يمكن إنقاذه، خصوصًا بعد تدمير بغداد من قبل المغول؟ أو لنَقُل: هل النخبة العالمة في عصر المماليك كانت تُعوزهم أفكارٌ جديدة؟ حيث استفادوا من الاستقرار السياسي النسبي وتحسن الأوضاع المعيشية، واشتغلوا بجمع كمٍّ هائل من المواد العلمية التي كتبها علماءُ ينتمون للقرون الماضية، هل كانوا يعتبرون أنفسهم عبارةً عن سجلات أو باعة للذاكرة الجماعية؟

والملاحظ أن جُلَّ المواد العلمية التي جمعوها وألفوها هي مواد مكتوبة بالعربية، على الرغم من أن العديد منهم يمكن أن يكون من أصولٍ تركية أو ينتمون إلى طبقة اجتماعية

معينة، أي ما يطلق عليهم **"أولاد الناس"**[٣] أي الطبقة الحاكمة من المماليك[٤]. هل كانوا يودون أن يُظهروا للناس أنهم قد استوعبوا وأحاطوا بتاريخ البلاد التي كان يحكمها آباؤهم أكثر من السكان الأصليين الذين هم العرب؟ هل يمكن أن نعتبر الموسوعات في بعض الحالات على أنها رمز للهوية؟

إن فرضية أن تكون الموسوعات تُعبر عن الهوية جد محتملة، ولكنها تنطبق بشكل كبير على نماذج معاصرة؛ ففي إيران بعد الثورة الإسلامية أول شيء فكر فيه الحكام الجدد لإيران هو إنجاز موسوعة، فهذا هو الداعي لإنجاز موسوعة «**دائرة معارف بزرگ إسلامي**»[٥]. وهذا يتجلى بشكل أكثر وضوحًا في الموسوعة الشيعية[٦].

هاتان الموسوعتان حلَّتا محل المشروع الذي بدأ في عهد نظام الشاه إحسان يار شاطر، وهو Encyclopedia Iranica، (كان اسمها في البداية Encyclopedia Persica)، والتي ما زالت تحمل اسمًا لاتينيًّا غربيًّا، وهو تقليد من الإيرانيين للموسوعة البريطانية Encyclopedia Britannica.

نجد إلى حد ما أن الأتراك كانوا أقلَّ طموحًا من نظرائهم الإيرانيين؛ ففي سنة ١٩٣٩ شرعوا في تأليف موسوعتهم Islam Ansiklopedisi تقريبًا سنة واحدة بعد وفاة مؤسس الجمهورية كمال أتاتورك؛ وقد كانت تحدوهم رغبة في إبراز تميزهم المزاجي والخلقي، عن طريق بيان أن تلَقِّيَ الأتراك للإسلام كان متفردًا ومختلفًا، ولكنهم في الحقيقة اكتفوا بترجمة الموسوعة الأوربية المسماة بدائرة المعارف الإسلامية (Encyclopedia of Islam)، ويبدو أنهم اعتمدوا على النسخة الفرنسية التي كتبها مستشرقون غربيون، باستثناء تلك المقالات التي تتحدث عن تركيا وحضارتها؛ فقد تمت كتابتها مؤخرًا من قبل علماء أتراك.

---

(٣) اشتهر مصطلح أولاد الناس في العصر المملوكي، وقد أطلق هذا المصطلح على أبناء المماليك الذين ولدوا على أرض مصر، ولم يجلبوا إليها مع النخاسين أو بيعوا في الأسواق. ومن هنا كانوا يحتلون مكانةً أدنى من مكانة المماليك ذاتهم، فقد كانوا ينصرفون تمامًا عن الحياة العسكرية والسياسية التي يعيش آباؤهم تحت ظلالها ومعهم غيرهم من المماليك. (المترجم).

(٤) يعتبر المؤرخون: ابن الدوداري (ت. ٧١٣/ ١٣١٣)، وخليل ابن أيبك الصفدي (ت. ٧٦٤/ ١٣٦٣)، وابن تغري بردي (ت. ٨٧٤/ ١٤٧٠) عينات مهمة، وسنتطرق للمؤرخ ابن يلدمير، ينظر:

U. Haarmann, « **Vater und Sohne im Herrschaftssystem der Mamluken**», in: Berliner Wissenschaftliche Gesellschaft, Jahrbuch 1995, p. 211 ff.

(٥) طهران ١٣٦٧/ ١٩٨٨ ff، هناك نسخة عربية كذلك من الموسوعة.

(٦) دائرة معارفي تشيعي.

نفس الظاهرة عرفتها باكستان؛ حيث تمت ترجمة دائرة المعارف الإسلامية Encyclopedia of Islam إلى اللغة الأردية بعد إنشاء الدولة سنة ١٩٤٧. وبعد نصف قرن من تلك الترجمة، لا أحد يمكنه أن يفهم سبب إقدام الباكستانيين على مجرد ترجمة Encyclopedia of Islam.

الموسوعات التي رأت النورَ في الشرق الإسلامي كانت وما تزال مشاريع حكومية، وهذا ما يجعل البحث عن الهوية سمة بارزة، لذلك ينبغي الحذرُ والتريُّث من إسقاط هذا الدافع على العصور الوسطى؛ لأن مصطلح "موسوعة" هو بطريقة أو بأخرى مصطلح معاصر، وهو بدون شك مصطلحٌ غربي. فالعرب قد ترجموا كلمة Encyclopedie بدائرة المعارف أو ترجموه إلى كلمة "موسوعة"، التي تعتبر كلمةً جديدةً تُشير إلى الإحاطة والشمول(٧).

لم تغفل «**دائرة المعارف الإسلامية**» التعرضَ لكلمة **"موسوعة"**؛ حيث خصصت لها مقالًا كتبه شار بيلات (Charles Pellat)، والذي كانت تغلب عليه مقاربة الموضوع من خلال كتب الأدب؛ حيث افتتح مقالته بالحديث عن **"موسوعية"** بعض الأدباء مثل الجاحظ وابن قتيبة.

وهذا يدفعنا فورًا للدخول في صلب المشكل، هل يمكن القول أن ما ذهب إليه شارل بيلات في مقالته في "دائرة المعارف الإسلامية" مسؤولٌ عن التضخم في الطريقة التي يستعمل بها مصطلح **"الموسوعية"** في مجال الدراسات العربية والإسلامية؟

هل كل من الجاحظ وابن قتيبة يعتبرون أدباء وموسوعيين؟

هل كتاب الصفدي «**الوافي بالوفيات**» يعتبر موسوعةً أم مجرد كتاب مستوعب للتراجم؟

هل كتاب «**المغني في أبواب التوحيد والعدل**» للقاضي عبد الجبار موسوعة أم مجرد خلاصة لاهوتية؟

هل كان بول هيك (Paul Heck) محقًّا في قوله في أطروحته للدكتوراه: إن « **كتاب الخراج وصناعة الكاتب**» لقدامة بن جعفر هو موسوعة(8)؟ أم كان مجرد كتاب مدرسي؟

---

(٧) يجب أن نذكر في هذا الصدد الموسوعة الفلسطينية (ثلاث أجزاء، بيروت، ١٩٧٨. دمشق: ١٩٨٤)، التي تعتبر مثلاً متفردًا للموسوعة التي تعكس هموم الهوية، بسبب أن ذلك الشعور بالهوية الوطنية لم يبق متيقظًا من طرف الدولة الوطنية المستقلة، بل من طرف اللاجئين وضحايا الاحتلال.

(8) **The construction of Knowledge in the Islamic Civilization** (Leiden: 2002), p. 2:
"كتاب قدامة ابن جعفر يجب أن ينظر إليه باعتباره موسوعة"

وماذا عن كتاب القزويني «**عجائب المخلوقات**»؟ هل يمكن اعتبار هذا الكتاب "**موسوعة في العلوم الطبيعية**" كما وصفته سيرينكس فون هيس (Syrinx von Hees) في أطروحتها[٩]، أو هو مجرد كتاب في الكوزموغرافيا[١٠]؟

في هذه الحالة الأخيرة نجد أنفسنا أمام مفارقة دلالية: هل يمكن الحديث عن "**العلم الطبيعي**" بالنسبة للقزويني؟ فالقزويني في هذا الكتاب يتعرض في أحد فصول الكتاب للملائكة، والملائكة ينتمون إلى الكوسموس (الكون)، كما يُفهم في العصور الوسطى، ولكن الكوسموس كما نفهمه الآن لا ينتمي إلى العلم الطبيعي، وهذا ما يُدركه الإنسان المعاصر عندما تطرق سمعه هذه الكلمة[١١].

لا أريد أن يُفهم من قولي أن وصف كتاب مثل كتاب القزويني بالموسوعة خاطئ؛ فلا يمكن لأحد أن يمنعنا من استعمال كلمة "موسوعة" بشكل فيه تساهل، ولكن ما نحتاجه فعلًا هو تعريف للمصطلح؛ لأن ما نخشاه هو أن يقع لمصطلح "**الموسوعة**" مثل ما وقع لمصطلح "**الإنسية**" (humanism) بالطريقة التي استعملها جورج مقدسي وجويل كرايمر (Joel Kraemer) ومارك بيرجي (Marc Bergé) ومحمد أركون.

فمصطلح "الإنسية" يبدو جميلًا لكنه من الصعوبة بمكان أن نُعطيه معنى ثابتًا؛ فكل دارس إلا ويحدد دلالته انطلاقًا من ميوله الخاص[١٢]؛ حيث يخشى أن يتكرر نفس الشيء مع مصطلح "موسوعة"، لأنه لو حدث ذلك فسنصطحب معنا معانٍ ودلالات ملتبسة للمصطلح.

إن أي تعريف للموسوعة لا يمكن أن يكون إلا وصفيًا أي رسمًا وليس حدًّا. فهل الحجم والأبعاد هي المعايير في تمييز الموسوعة عن غيرها من الكتب؟ أو شموليتها؟

---

(9) Enzyklopadie als Spiegel des Weltbilds . Qazwini's Wunder der Schopfung, eine Naturkunde des 13. Jahrhunderts (Wiesbaden 2002).

(١٠) أي العلم الذي يبحث في مظهر الكون وتركيبه العام، وهو يشمل علوم الفلك والجغرافيا والجيولوجيا. (المترجم).

(١١) فون هيس، von Hees، تدافع عن استعمالها للمصطلح. ص. ١٠٩ وما بعدها. من أجل أن نكون منصفين يجب أن نقبل ذلك؛ لأنه في الألمانية كلمة "Naturkunde" ليست هي نفسها مصطلح "Naturwissenschaft" . فالكلمة تجنبنا الوقوع في المفارقة التاريخية (anachronism) التي تقع دائمًا عندما يتم استعمال كلمة "العلوم الطبيعية" بالنسبة للعصور الوسطى، والتي كان يقصد بها في ذلك الوقت بـ "physiography" التي تعني وصفًا للطبيعة. ولكن هذا ليس مقصودي، وإنما المقصود هو بيان إن كان الملائكة ينتمون إلى الطبيعة.

(12) Cf. Marco Schöller, "Zum Begriff des «islamischen Humanismus»", in: ZDMG 151 (2001): 275ff.

ما المفروض أن تتضمنه الموسوعات، ليس بالنسبة لنا ولكن بالنسبة للعصر الذي أُلفت فيه؟ فكلمة "موسوعة" قد تمت صياغتُها من طرف المفكرين الإنسيين الأوربيين حوالي ١٤٩٠، لكن "الموسوعة" في ذلك العصر لم تكن بشكلٍ أساس تتجسد في كتاب، بل كانت عبارة عن "Bildungsideal"، أي مدونة ثقافية للعصر، حيث كانت مقياسًا معياريًّا للتكوين الثقافي في إطار ما يُسمى بـ « studium generale [١٣]»، من النوع الذي ما زلتُ شاهدًا عليه في الجامعة الأمريكية في بيروت (التي كانت في ما مضى مؤسسةً تبشيرية)، عندما درَّستُ هنالك في الستينيات. حيث كانت الكتب تكتب باليونانية القديمة من أجل هذا الغرض، وتعكس تلك الكتب تقليدًا قديمًا في مدارس أوروبا في العصر الوسيط لا يزال حاضرًا في ذهن القراء والمؤلفين.

بتعبير آخر: الموسوعة كانت دائمًا عمل كاتب واحد، وكانت تتناغم مع المناخ والسقف المعرفي في العصر الذي كُتبت فيه، وأكثر من هذا أن تكون متناغمةً مع طبقة معينة، وهم الأرستقراطيون بالخصوص.

هل يمكن أن ينطبق هذا على العصور المبكرة للإسلام؟ هل يمكن أن نسمي كتابًا بالموسوعة عندما يعكس آداب عصره؟ هذه هي فرضية بيلات (Pellat).

ولكن استعمالنا لكلمة موسوعة يحيل إلى هؤلاء الذين يخوضون في علوم مختلفة، ولكن ما يجعلنا مترددين في قبول وجهة نظر بيلات هو أنه في بداية العصر العباسي كانت العلوم في طور التكوين والتبلور. فمنذ متى أصبحت تراجم الصحابة وعلوم القرآن علومًا مكتملة حتى يمكن القول: إن فلانًا موسوعي والآخرين ليسوا كذلك؟

هل يجدر بنا أن نسمي رجلًا متأخرًا من الناحية الزمنية مثل ابن الجوزي بأنه موسوعي، والذي كان واعظًا وفقيهًا حنبليًّا، لمجرد أنه استطاع أن يكتب في علم الكلام وأن يقرظ الشعر؟ فهو نفسه قد كان واعيًا بتضلُّعه في الكثير من العلوم، ولكنه في الحقيقة كان ضيق الأفق أكثر من كونه موسوعيًّا.

---

(١٣) نمط من التعليم ساد في أوربا في العصور الوسطى بدءًا من القرن ١٣، ويعتمد على تدريس الطلبة القادمين من مناطق مختلفة، ولا يتم الاكتفاء فقط بالفنون السبعة: المنطق النحو البلاغة، والرياضيات والهندسة، وعلم الفلك والموسيقى، بل كذلك القانون واللاهوت والطب. (المترجم).

هـذه الحـيرة يمكـن أن تكـون قـد دفعـت جرهـارد أندريـس (Gerhard Endress) في الفصـل الـذي كتبـه عـن الموسـوعات في كتـاب Grundriß der Arabischen Philologie، إلى أن لا يشـير إلى أي مسـعى إلى كتابـة موسـوعة قبـل الفـارابي.

بالنسـبة إلى جيرهـارد أندريـس فالفلاسـفة هـم الذيـن طـوروا المفهـوم، مُلهمـين مـن طـرف الـشروح التـي أنشـأت حـول المـتن الأرسـطي والتـي شـكلت الأسـاسَ لمناهجهـم الدراسـية[14].

فأرسـطو كان عالميًّـا مـن خـلال تعليمـه ومـن خـلال كتاباتـه؛ حيـث كان الفلاسـفة المسـلمون يعتقـدون أن اتبـاعَ أرسـطو يعنـي تقديـمَ كل المعـارف المتاحـة في شـكل جديـد، وليـس في إطـار خطـاب دينـي، والفلاسـفة كانـوا يقتـصرون عـلى المعـارف النظريـة بينـما المعـارف العمليـة مثـل الطـب أو علـم الفلـك فتنتمـي إلى المجـال المهنـي والحـرفي.

نجـد أن ابـن سـينا قـد اختـار لمؤلفـه الطبـي اسـم «**القانـون**»، الـذي يُعتـبر اسـمًا يونانيًّـا دخل إلى اللغـة العربيـة عـن طريـق نظـام الضرائـب[15]. عكـس ذلـك نجـد أن ابـن سـينا قـد أعطى اسـمًا طبيًّا عربيًّـا لكتابـه الأكـثر موسـوعية، ونقصـد هنـا «**كتاب الشـفاء**»، أي شـفاء الروح وليس شـفاء الجسـد.

ولكـن ينتابنـا شـكٌّ إذا مـا كان كتـابُ الشـفاء يتوافـق مـع فهمنـا للموسـوعة؛ فكتـابُ الشـفاء هـو شرح مسـتفيض عـلى المـتن الأرسـطي، ولكـن نجـد أن كتابًـا آخـرَ لابـن سـينا كتبـه بالفارسـية وهـو كتـاب «**دانشـماه عـلائي**» يعتـبر كتابًـا يعـبر عـن مقصودنـا بالموسـوعة؛ فهـذا الكتـاب رغـم كونـه صغـيرَ الحجـم بالمقارنـة مـع «**كتـاب الشـفاء**» فهـو يضـمُّ باختصـار شـديد أهـمَّ القضايـا الفلسـفية التـي تُـدرّس، موجهـة إلى غـير المتخصـص في الفلسـفة بلغـة فارسـية واضحـة ومفهومـة. دانشـمة (التـي تعنـي كتـاب المعرفـة [الأساسـية]) يعتـبر لقبًـا يتوافـق مـع نيتنـا ويبـشر بمصطلـح الموسـوعة.

أمـا بالنسـبة لكتابـه «**القانـون في الطـب**» فهـو حقيقـةٌ يمكـن أن نُسـميه موسـوعةً "لبعـض الأشـياء" في الطـب، مثـل الموسـوعات التـي نتوفـر عليهـا في أيامنـا للطبـخ والنظـام الضريبـي أو

(14) - GAP, vol. III 57ff.

ويجـب أن نضـع في الاعتبـار أن أندريـس كان مسـؤولًا فقـط في هـذا الكتـاب متعـدد المؤلفـين عـلى القسـم المتعلـق بالفلسـفة، أمـا القسـم المتعلـق بـالأدب فقـد كتبـه شـخص آخـر

(vol. II: 208ff, by H. Horst). Cf. now also H. H. Biesterfeldt, "Medieval Arabic Encyclopedias of Science and Philosophy", in: St. Harvey (ed.), **The Medieval Hebrew Encyclopedias of Science and Philosophy** (Dordrecht 2000): 77ff.

(15) Cf. EI2 IV 556 (Y. Linant de Bellefonds).

الدراسات الإسلامية، ولكن بما أن هذا الكتاب قد كُتب للمختصين وللممارسين للطب فيمكن أن نُسميه مختصرًا أو دليلًا.

هل يمكن القول بأن أهم سمات الموسوعة وما يميزها عن غيرها هو وضع المواد العلمية في الترتيب الصحيح؛ وترتيب العلوم حسب رؤية واضحة؟ إذن فكتاب الفارابي «**إحصاء العلوم**» يمكن أن يكون مثالًا جيدًا.

وماذا عن كتاب الخوارزمي «**مفاتيح العلوم**»؟ وهو لا يتعدى المائة والخمسين صفحة في إحدى طبعاته القديمة؟

وماذا عن كتاب «**جوامع العلوم**» لابن فريغون الذي لم يقل شيئًا عن الفنون التي يذكرها، بل ذكرهم على طريقة الشجرة الفورفورية (نسبة إلى فورفوريوس) أو ما يسمى بالتشجير؟

وماذا عن كتاب «**إحياء علوم الدين**» للغزالي؟ هل يمكن أن نقرأ هذا الكتاب الفريد باعتباره موسوعةً للسلوك الديني العملي، أو باعتباره مشروعًا مضادًّا (Gegenentwurf) لابن سينا في كتابه النظري "**الشفاء**"، فهو مشروع مضاد بالقدر الذي دفع الغزالي إلى اعتبار الفلسفة مسألةً تمهيدية من خلال كتابه «**مقاصد الفلاسفة**»؟ هل كان "المشروع" كما تصوره الفلاسفة قد تعرض للاختطاف من قبل المتكلمين الذين اقتبسوا ما استطاعوا إليه سبيلًا من الفلاسفة وتركوا كل الأشياء الأخرى جانبًا؟ لقد كان أندريس محقًّا عندما نبه إلى أهمية كتاب نجم الدين الكاتبي الموسوم بـ «**حكمة عين القواعد**» في إطار الحديث عن الموسوعات. وماذا عن كتاب «**بحار الأنوار**» للمجلسي هل يعتبر موسوعةً؟

إن الفلسفة الإسلامية تقدم لنا النموذج الأول عن الموسوعة التي نُظمت وأُنشئت، ليس من قبل كاتب واحد بل من قبل مجموعة من الناس الذين اشتغلوا بشكل جماعي، ونتحدث هنا عن «**رسائل إخوان الصفا**». فإخوان الصفا كانوا من محبي الفنون الذين أغرموا بالفلسفة (وربما استعملوها من أجل مقصد ديني) ولكنهم أبدًا لم يجعلوا منها مصدرًا للرزق، فهم في بعض النواحي يقارنون بأبي حيان التوحيدي (الذي يعرفهم ولكن لم يمعن النظر بشكل كبير في إنتاجهم)[١٦]. فقد عاشوا في البصرة بعيدًا عن الخليفة وبلاطه في بغداد، وحاولوا أن يثبتوا صفةَ

(١٦) ينظر: كتاب الإمتاع والمؤانسة، تحقيق، أحمد أمين، وأحمد الزين، (القاهرة: ١٣٧٣/١٩٥٣)، ج. ٢. ص. ٤ وما بعدها. ويظهر الاهتمام الحقيقي لأبي حيان بالفلسفة في كتابه المقابسات.

الفـن في كل التخصصـات العلميـة، والتـي مـن المفـروض أن يلـم بهـا الرجـلُ العـادي، فقـد اشـتغلوا جماعيًّـا مثـل فريـق يشـتغل في "مـشروع"، يواصلـون عـلى طريقتهـم تقليـد "صالـون" البرجوازيـين في البـصرة، والـذي كان سـائدًا في أيـام الجاحـظ. في الإسـلام الكلاسـيكي كان هـذا للتعـاون الجماعـي شيءٌ متفـردٌ، فلـم يكـن ذلـك معروفًـا إلا حـين اكتشـف علـماء أوربيـون **"رسـائل إخـوان الصفـا"**[17].

نتذكـر في هـذا المقـام الموسـوعيين الفرنسـيين الذين سـاروا على سـير كل من ألامـبرت (Alembert) وديـدرو (Diderot)، الذيـن تعاونـوا باعتبارهـم "société de gens de lettres"، والذيـن كانـوا مـن محبـي الفلسـفة، ويمكـن أن نسـميهم بلغتنـا المعـاصرة بالمثقفين.

وعندمـا يتظاهـرون بأنهـم فلاسـفة، يشـبه حالهـم حـال المتكلمـين الأوائـل ورجـال الأدب، مثـل النظَّـام الـذي كان في بغـداد في العـصر الذهبـي للمعتزلـة، الـذي كان ينعـت بالفيلسـوف مـن قبـل معـاصره المسـيحي[18] أيـوب الرهـاوي.

فهـم فلاسـفة بالقـدر الـذي يفهمـون أن مهمتهـم تتجـلى في الانعتـاق؛ فالمعرفـة تعنـي التنويـر. وذلـك يشـبه مـا كان يعتقـده أرسـطو (وسـار عـلى عقبـه الفلاسـفة المسـلمون) عندمـا قـال: إن المعرفـة تعـزز سـعادة الإنسـان – فالمعرفـة مسـاهمة في تحقيـق سـعادة الإنسـان.

ولكـن الأوربيـين تابعـوا هـذا النمـوذج مـع بعـض النفس التبشـيري، في إطـار ما يسـمى "mission civilisatrice"، فهـذه مسـألة جديـدة وجوهريـة إلى حـد بعيـد، وذات نـزوع نضـالي لم تصـل إلى العـالم الإسـلامي إلا مـع الموسـوعة التركيـة Islam Ansiklopedisi.

في أوروبـا اسـتطاعت الموسـوعة البريطانيـة Britannica – ذات الاسـم الرنـان- أن تضيـف الـشيءَ الكثـير إلى المجـد الوطنـي لبريطانيـا، فديـدرو وفريقـه لم يفكـروا في أن يسـموا مشروعهـم بالموسـوعة الفرنسـية "Encyclopédie française"، فالفرنسـيون قـد نـشروا آخـر مجلـد سـنة ١٧٦٥، بينـما البريطانيـون لم يبـدءوا العمـل في موسـوعتهم إلا بعـد ثـلاث سـنوات، أي في سـنة ١٧٦٨.

---

(17) Friedrich Dieterici, **Die Abhandlungen der Ichwan as-safa' in Auswahl zum ersten Mal aus arbischen Handschriften herausgegeben** (Leibzig 1886).

مع ترجمة ألمانية لجل الأجزاء التي تم نشرها بدء من ١٨٥٨ وما بعدها.

(18) **Theologie und Gesellschaft im 2. Und 3. Jahrhundert Hidschra** (Berlin 1991- 1997), vol. 3. P. 299 and 334. Also Vol. 4. p. 733.

لا أريد القول بأنهم كانوا مشغولين بإمبراطوريتهم؛ فقد كانت هناك محاولات في إنجلترا من طرف أفراييم تشامبرز Ephraïm Chambers، والذي سمى عمله "cyclopedia or a Universal Dictionary of Arts sciences" سنة ١٧٢٨. وقد كان الفرنسيون يفكرون أصالةً بترجمة هذا العمل إلى الفرنسية. ولكن في جميع الحالات فالمعرفة في هذا الموضع تعني السلطة، والمعرفة الموسوعية مطلوب منها أن تستوعب العالم كله، (هذا العالم ينتهي في نظر الأوروبيين بحدود بلدانهم في ذلك الوقت). وقد أضاف الفرنسيون عدة مقالات طويلة تعالج موضوع التكنولوجيا، هذا الأمر الذي لم يعهده الإسلام الكلاسيكي تقريبًا.

قصة الموسوعة البريطانية هي قصة نجاح، فقد صدرت آخر نشرة منها سنة ٢٠٠٢، وقد تم إهداءُ هذا الإصدار إلى الرئيس الأمريكي جورج بوش وجلالة الملكة إليزابيث الثانية. فالناشر قام باقتفاء عادة قديمة، ففي سنة ١٩٧٤ أشار الإصدار الخامس العشر من الموسوعة إلى إهداءٍ لنفس الملكة والرئيس الأمريكي رونالد ريغن.

سؤالنا الذي نطرح ليس ما إذا كان هؤلاء المُهدى إليهم العمل سنة ٢٠٠٢ قد أنفقوا وقتًا مهمًّا في قراءة هذا الكتاب المكون من ٢٩ مجلدًا (أكثر من ثلاثين ألف صفحة إذا أدرجنا كلًّا من المجلد الأول التمهيدي والفهارس)، ولكن السؤال الذي نطرحه إذا كانت الموسوعات الإسلامية يمكن أن تكون قد أهديت إلى شخص ما ولماذا تم هذا الأمر؟

نصف السؤال قد تمت الإجابة عنه، فقد كنا ذكرنا كتاب «**دنشماه علائي**» لابن سينا؛ حيث إن الصفة علائي تشير الحاكم من آل كاكويه، وهو علاء الدولة محمد بن رستم دشمنزيار، الذي حكم منذ ٣٩٨هـ/ ١٠٠٨م إلى ٤٣٣هـ/ ١٠٤٤م، والذي خدمه ابن سينا كوزير.

ورغم أنه لا يوجد كتاب إسلامي لا يبدأ بالبسملة (وفي الغالب يتبعونها بالصلاة على الرسول)، ولكن هذه العادة لم تمنع أحدًا من أن ينطق بعبارات الثناء والمديح في حق أمير أو من موَّل العمل.

في حالة ابن سينا كان ذكر اسم الأمير ضروريًّا، فقد كتب كتابه تحت أمر سيده كما ذكر ذلك في المقدمة. والعنوان نفسه قد أضيف بعد ابن سينا من قبل تلميذه[19]. مثال آخر – أو

(19) **Encyclopaedia Iranica,** 6 (1993): 651 f. s. v. Danes-nama (H. Dabashi).

هـو مثـال أكـثر دلالـة- هـو فخـر الديـن الـرازي (ت. ٦٠٦هـ/ ١٢١٠م)، ففـي سـنة ٥٧٤هـ/ ١١٧٩م كتـب كتابًـا اسـمه «**كتـابي سـتيني**» بالفارسـية ويسـمى بالعربيـة «**جامـع العلـوم**» وهـو عبـارة عـن موسـوعة للمبتدئـين وتضـم سـتين علـمًا، وقـد أهـداه للسـلطان عـلاء الديـن تكـش الخوارزمـي (الـذي حكـم مـن ٥٦٧هـ/ ١١٧٢م إلى ٥٩٦هـ/١٢٠٠م)؛ حيـث أورد في مقدمتـه «أنـه جمـع فيـه جميـع علـوم عـصره مـن أجـل أن يجعـل منـه مرجعًـا للعلـماء في البـلاط»[20].

ويمكننـا أن نفـترض أن هـؤلاء العلـماء الذيـن كتـب لهـم الـرازي ذلـك الكتـاب لم يكونـوا مـن المتقنـين للعربيـة[٢١]، وبمـا أن الفارسـية كانـت هـي اللغـة الأساسـية بالنسـبة لهـم، فإنهـم عـلى الأقـل كانـوا يسـتعملون قدرتهـم عـلى القـراءة بالعربيـة. وقـد منحهـم الـرازي في كتابـه فصـلًا يعالـج كيفيـة إنتـاج الطبـول، ووسـائل الدمـار الشـامل (غـير المحظـورة) مثـل مركبـات الكبريـت القابـل للاشـتعال[٢٢].

فالضجيـج الـذي تحدثـه تلـك الآلات سـاعدت الأمـير تكيـش في القضـاء عـلى السـلاجقة في فـارس، ويجـب أن نعـترف أنـه بالرغـم مـن هـذه التجربـة مـع التكنولوجيـا فلـم تجلـب لمـن خلـف هـذا السـلطان حظًّـا؛ فقـد عُـزل هـذا السـلطان وقُتـل، ليـس مـن قبـل خـوارزم شـاه بـل مـن قبـل المغـول.

وبعـد قـرن مـن الزمـان كان المغـول قـد بلغـوا ذروةَ المجـد في إيـران؛ فألـف شـمس الديـن محمـد آمـلي كتـاب «**نفائـس الفنـون في عرائـس العيـون**» والـذي ضـم مائـة وعشريـن علـمًا ضـم بعضهـا إلى بعـض[٢٣]؛ وقـد أهـداه لأمـير شـيراز أبي إسـحاق إينجـو، والـذي وصـف حكمـه بالليـبرالي في مرثيـة للشـاعر حافـظ.

---

(20) Z. Vesel in EI2 VI 908 s. v. Mawsù'a; cf. also id. in **Encyclopaedia Iranica,** 8 (1998): 436 s. v. **Encyclopædias Persian.**

(٢١) هذا الكتاب موجود كذلك في نسخة عربية يقارن بـ: (GAL2 1/669, S 1/924).

(٢٢) **جامع العلوم** (بومباي: ١٩٠٦، وأعيد طبعه في طهران: ١٣٤٦/ ١٩٦٧)، ص. ١٥٧-١٦٠.

(٢٣) طبعـة حجريـة، طهـران: ١٣٠٩، تحقيـق: أبـو الحسـيني شـعراني في ثـلاث مجلـدات. طهـران: ١٣٧٧/١٩٥٧- ١٣٧٩-/ ١٩٥٩. والفصـل المتعلـق "بالفتـوة" نـشره مرتـضى صراف في: رسـائل جوانمـردان/ Traités des Compagnons-Chevaliers (المكتبـة الإيرانيـة ٢٠، طهـران/ باريـس ١٩٧٣)، ص. ٥٨ ومـا بعدهـا, يقـارن بـ: بالمقدمـة المكتوبـة بالفارسـية للمحقـق، ص. ١٩ ومـا بعدهـا، والمقدمـة الفرنسـية التـي كتبهـا هـنري كوربـان. ص. ٢٧ ومـا بعدهـا. وعـلى عكـس فخـر الديـن الـرازي فقـد أدخـل آمـولي التصـوف ضمـن "العلـوم".

وقد كانت إيران مكانًا خصبًا لإنتاج هذا النوع من التأليف؛ فالآمولي قد ضاعف عدد العلوم المطروقة إذا قورن مع كتاب فخر الدين الرازي السابق الذكر.

في إيران ظل زخم ابن سينا يرخي بظلاله لعدة قرون. المجتمع المملوكي كذلك وفر البيئة المناسبة لازدهار العلم، ولكن لمصر تاريخ مختلف؛ فمصر لم تعرف مثل ابن سينا، فالمصريون لم يكونوا ذوي نزوع فلسفي إلى حد ما، كما أن ذروة إنجازاتهم العلمية تعود إلى الفترة الفاطمية، أكيد أن المقريزي قد أحيا الذاكرة الجماعية، ولكن كُتّابا آخرين اختاروا طرقًا أخرى من أجل تسطير الذاكرة الجماعية.

كان للغرب الإسلامي وضعية مشابهة؛ فإسبانيا قبل الإسلام لم يكن لديها شيءٌ تقدمه بخصوص الفلسفة اليونانية، فلم تعرف إلا كاتبًا واحدًا، والذي تم الاستفادة منه في ترجمة عربية وهو المؤرخ أوراسيوس[٢٤]. كان الأندلسيون في وعيهم الجمعي دائمي التذكر لأصولهم في سوريا في ظل حكم الأمويين، وهذا هو الذي يجعلنا نشعر بأننا منجذبين لتأويل كتاب ابن عبد ربه «**العقد الفريد**» بأنه موسوعة "**للعالم الجديد**".

الكتاب المغربي الوحيد الذي يستحق الثناء لكونه "**موسوعيًّا**" هو «**المقدمة**» لابن خلدون؛ حيث استفاد ابن خلدون (على الرغم من قصر المدة التي قضاها في الأندلس) من انبعاث الفلسفة في الأندلس عندما وصف وقيَّم مجموعة من العلوم التي رتبها ترتيبًا نسقيًّا[٢٥]، وذلك في القسم السادس من المقدمة، بالإضافة إلى تناوله جوانب تاريخية.

وقد اكتسى ابن خلدون شهرته من خلال تفسيراته المتعلقة بصعود وانهيار الحضارات. أما بالنسبة لما تبقى من أفكاره فلا تعدو أن تكون عرضًا محترما لمحتويات مصادر مشرقية؛ لخصها من دون أن يقول شيئًا جديدًا بخصوصها.

---

(٢٤) تحقيق: عبد الرحمن بدوي، أرسيوس: **تاريخ العالم**. الترجمة العربية القديمة. (بيروت: ١٩٨٢)، يقارن بـ:
G. Levi Della Vida, '**La traduzione araba delle storie di Orosio**', **in: al-Andalus** 19 (1954): 257ff.
هناك كذلك مؤلف آخر باللاتينية والذي تم استخدامه بكل تأكيد وهو عبارة عن كتاب زراعي يسمى: De re rustica لمؤلفه كولوملا Columella وقد ظلَّ الكتاب مجهولَ المؤلف وحتى المضامين ليست فلسفية كذلك.
(٢٥) يقارن: بالترجمة الإنجليزية القديمة للمقدمة لفرانز روزنطال. ج. ٣. ص. ٤٠٩ وما بعدها. وكذلك الترجمة الفرنسية الجديدة لعبد السلام الشدادي (باريس ٢٠٠١)، ج. ١. ص. ٨٣٢ وما بعدها. وابن خلدون ينقل عن أوروسيوس ولكن ليس في المقدمة ولكن في القسم الأخير من "كتاب العبر" (يقارن ببدوي، المرجع السابق، الإحالة في صفحة ٣٥ وما بعده وصفحة ٤٦٩ وما بعدها).

الموسوعات بكل تأكيد لا تكون جيدةً إلا بقدر خبرات كاتبها، فالموسوعات يمكنها أن تلعب دورًا كبيرًا في التعليم، ولكن هذا مرتبط بالرغبات التعلمية للجمهور، فلكل منطقة خلفيتها الثقافية الخاصة بها.

في كتاب الفخر الرازي «**جامع العلوم**» استحال فيه الأدب العربي إلى مصطلحات جافة وإرشادات مناسباتية للصناعة الشعرية والبلاغية؛ التسلية الوحيدة التي وجدت جديرة بالذكر بتفصيل كبير، باستثناء الحرب، هي الشطرنج[٢٦].

في مصر على عكس ذلك، نجد ابن فضل الله العمري (٧٠٠هـ/ ١٣٠١م- ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م)، فهو ليس فيلسوفًا أو متكلمًا مثل الرازي، بل هو مسؤول حكومي لم يحالفه التوفيق، ركز في كتابه «**مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**» بشكل محدد على التاريخ والجغرافيا.

فقد وفّى ما وعد به من وصف "الأرض ومن عليها"، أي اتباع المسالك والطرق البادية لعين الناظر، ولكن لم يكن لديه شيء يقوله حول تقنيات الحرب. الشيء الذي قدمه بدلًا عن ذلك هو ملاحظات بخصوص الإدارة، هذا الموضوع الذي سيتعرض له بإسهاب كبير ابنُ بلده والذي أتى بعده وهو القلقشندي[٢٧].

وابن خلدون كان مفكرًا مترحلًا بدون مستقر، خاض تجارب مأساوية وهو يؤدي وظيفته الدبلوماسية، وقد كتب «**المقدمة**» وهو منعزل في قلعة ابن سلامة، وانتهى به المطاف وهو قاض.

هذه الأمثلة المعروضة كلها جيدة وتبين شيئًا واحدًا: الشيء الذي لا ينبغي أبدًا انتظارُه في أي موسوعة، سواء كانت معاصرة أو تنتمي إلى القرون الوسطى، هي أن تتميز بالأصالة.

بالإضافة إلى ما تقدم، هناك مجالات الاهتمام الثقافي، باعتبارها مواضيعَ منفصلة ومستقلة، لم يتم إدراجها في الموسوعات، فالشعر من تلك المواضيع التي لم يتمَّ إدراجها، رغم إقبال جميع الفئات عليه.

---

(٢٦) جامع العلوم، ص. ٢٢٠ وما بعدها، مع العديد من الصور التوضيحية.

(٢٧) للمزيد عن أهداف ودواعي التواريخ العالمية الإسلامية، ينظر:

B. Radtke, **Weltgeschichte und Weltbeschreibung im mittelalterlichen Islam;** Beirut 1992 (Beiruter Texte und Studien, 51).

فقد جُمع الشعر دائمًا في دواوين في البداية وبعد ذلك في أنطلوجيات؛ العمل الأكثر استيعابًا في هذا الصدد وأصبح في المتناول مؤخرًا، وهو كتاب ابن ميمون: «**منتهى الطلب من أشعار العرب**»[٢٨]، وكتاب ابن أيدمر «**الدر الفريد والبيت القصيد**»[٢٩].

ولكن هذا المجال يبقى عالمًا منفصلًا في حد ذاته، وهو اعتبار الشعر إلى حد كبير ليس موضوع دراسة، بل هو يحقق لذة جمالية فقط.

نفس الشيء يمكن قوله حول المعاجم العربية، فمنذ البداية كان العرب مهووسين بتحليل لغتهم (لغتهم الوحيدة فقط) فقد كانوا في هذا الأمر أفضل من إزيدور الإشبيلي Isidore of Seville [٣٠].

ولكن هذا النزوع تمثل وتجسد فقط في معاجم، وذلك بسبب عوامل يمكن فهمها. وأحيانًا كانت تلك المعاجم في حجم الموسوعة مثل «**القاموس المحيط**» (القاموس المحيط للفيروزآبادي احتاج إلى قاموس مرتضى الزبيدي «**تاج العروس**» لكي يتوج بنجاح لا مثيل له)[٣١].

وفي الأخير نجد كتب التراجم، أي "مشاهير الناس"، فالموسوعات المعاصرة للمشاهير والصحف الحديثة مولعة بهذا النوع من التأليف، ولكن كتب التراجم تُعد إلى حد بعيد شيئًا متفردًا.

ويعتبر الصفدي، كما أقر بذلك هلموت ريتر (Helmut Reiter) بأنه لا يُعلى عليه في هذا الفن، خصوصًا منذ أن كتب إلى جانب كتابه المعروف «**الوافي بالوفيات**» كتابه الآخر «**أعيان**

---

(٢٨) اكتمل هذا الكتاب في بغداد في سنة ٥٨٩/ ١١٩٣ ((GAL S ٤٩٤/١)، وحقق من طرف: محمد نبيل طريفي، في تسعة أجزاء، بيروت، ١٩٩٩.

(٢٩) النسخة التي بخط المؤلف تؤرخ سنة ٦٨٠/ ١٢٨١، وقد شهد المؤلف سقوط مدينة بغداد، وقد قتل والده عندما اقتحم المغول مدينة بغداد:

GAL S 1/444; cf. G. J. H. van Gelder in EI2 Suppl, 635 s.n. Mu.ammad b. Sayf al-Din with further literature.

ويعتبر ديوان الحماسة لأبي تمام من أشهر الأنطلوجيات الشعرية؛ حيث حقق في الكتاب في بداية القرن التاسع عشر تحديدًا سنة ١٨٢٨ من طرف فرايتاغ G. Freytag (نشر في مدينة بون الألمانية مع ترجمة لاتينية ١٨٥٧- ١٨٦١). وقد اعتمد محققو الكتاب في مطبعة بولاق ١٢٨٤/ ١٨٦٧ بشكل كليٍّ على الطبعة الألمانية. وفي الأندلس لا ننسى كتاب ابن بسام: "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة"، (تحقيق: إحسان عباس، في ثمانية أجزاء، بيروت ١٣٩٩/ ١٩٧٩).

(٣٠) صاحب كتاب Etymolgiae والذي تتبع فيه أصول ١٦٤٠ كلمة إسبانية، هذا الكتاب الذي أصبح فيما بعد يسمى بـ"الأصول". (المترجم).

(٣١) الارتباط المجازي بين "المحيط" و " تاج العروس" يتجسد في اسم الشرح " تاج العروس من جواهر القاموس" أي أن الجواهر التي توجد في قاع المحيط يرصع بها تاج العروس.

العصر وأعوان النصر»، والذي ترجم فيه معاصريه، وفي كتابه الأخير كان الصفدي مبدعًا؛ لأنه لم يكن للصفدي أن يبنيه على مصادر متقدمة عليه؛ لأنه ترجم لمعاصريه.

ويجب أن نضع في الذهن أن الموسوعات الأوربية هي كذلك تختلف في مقارباتها كذلك؛ فالخلفية الثقافية للقارئ تُأخذ بعين الاعتبار مثل باقي البقع الجغرافية. فعندما نشر الألمان أولَ موسوعة لهم لم تكن ألمانيا موجودةً بعدُ باعتبارها أمة، فلم يفكر واحد بأن تحمل تلك الموسوعة اسمًا مثل الموسوعة البريطانية Encyclopedia Britannica.

ولم تكن الموسوعات في تلك الفترة تخلد ذكرَ شعوب معينة، بل تخلد أسماء الأفراد الذين موَّلوها ونشروها مثل بروكهاوس (Brockhaus) في سنة ١٧٩٦ ومايير (Mayer) سنة ١٨٤٠، فهاتان الشخصيتان لم يكونا علماءَ بل كانا من رجال الأعمال مثل أفرايم تشامبرز (Ephraim Chambers)، في بداية القرن الثامن عشر في إنجلترا. والمهم أن كلا الشخصيتين الألمانيتين لم يسميا مشروعهما بالموسوعة، بل سمياه "Konversationslexikon"، بما معناه "الشيء المفيد في المحادثة"، أي المحادثة العالمة بطبيعة الحال، والاسم الكامل للكتاب هو: «Mayers Conversations-Lexikon fur die gebildeten Stande» وهذا ما يجعلنا نعود إلى نظرة العرب الأوائل إلى الموسوعات باعتبارها وسيلةً للتأدب في المحادثة[٣٢].

فكل من يريد أن يحادث الآخرين من المفروض عليه أن يبدي الاهتمام، ومن أجل أن يبدي الاهتمامَ ينبغي عليه أن يلم بنبذة عن المواضيع العلمية والأدبية المطروقة، وإلا استحال إلى جليس ممل، مثل الملل الذي يبعثه هؤلاء ذوو المهارات والمعارف المتخصصة في أيامنا هذه.

فالمتخصصون يمكن أن يكونوا متفوقين في تخصصاتهم، ولكنهم يعيشون منعزلين في تخصصاتهم الضيقة، فهم ليسوا مقبولين اجتماعيًّا "gesellschaftsfahig"، رغم أن الكلمة الألمانية يصعب ترجمتها إلى الإنجليزية بـ "sociable"؛ لأنه من الممكن أن تكون اجتماعيًّا ولكن في نفس الوقت مطبق الجهل.

قام بلدزار كاستيغليون (Baldesar Castiglione) بوصف هذا الموقف النخبوي الذي تسرب بشكل سيء جدًّا إلى مجتمعاتنا الديمقراطية الحديثة، ففي كتابه الشهير Libro del

(32) Cf. H. Kilpatrick, “ **A Genre in Classical Arabic Literature: the adab Encyclopaedia** ”, in: Proceeding 10th Congress UEAI, Edinburgh (1982): 34ff.

Cortegiano»» (كتاب الحاشية) في بداية القرن السادس عشر ذكر ما نصه: «يجب عليك أن تجعل حديثك ممزوجًا ببعض القصص الطريفة والمقارنات ذات الصلة بالموضوع.

ومثال على ذلك: من المفروض أن تعرف بعضَ الشيء عن الموسيقى، وأن تبرهن على ذوق رفيع في الموسيقى، بل يجب عليك أن تتجنب ترديدَ صوت البوق أثناء حفلة، فهذا سيجعلك تنفخ خديك وهذا يجعلك مثيرًا للضحك».

هل كان ابن قتيبة يفكر بهذه الطريقة؟ وانطلاقًا إذن من كون الأدب مثالًا معياريًّا، هل كان كتابَا ابنِ قتيبة «**أدب الكاتب**» و«**كتاب المعارف**» مثل "الموسوعة"، لمن يريد أن يتزود بنبذة عن المعارف الأساسية؟ وليس الشيء الكثير في كل الحالات – والأشياء الصحيحة بطبيعة الحال، الأشياء التي هي صحيحة اجتماعيًّا، كاستيكوليون Castiglione كتب عن الحب، ولكن ابن قتيبة لم يكتب عنه.

فكاستيكليون لم يكتب كتابه فقط حول الحاشية cortegiano، بل من أجل الحاشية[٣٣]؛ فرجال الحاشية والأرستقراطيون المتعلمون في عصر النهضة الإيطالية لم يكونوا متميزين من ناحية رهافة الإحساس finesse d'ésprit، ولكن كذلك للفضائل الأخلاقية التي تشربوها.

نفس الشيء بالنسبة لليونان؛ فقد كانت الموسوعة موجهةً في الأصل للناس الأحرار. من هذا المنطلق هل كان "الأدب" في الثقافة الإسلامية موجهًا فقط إلى العرب، دون الموالي الذين كانوا من ذوي المهن، مثل العبيد بالنسبة لليونان؟ ولكن من الأفضل تجنب مثل هذه المقارنات الملتبسة، ولكن السؤال الذي ينبغي أن نطرحه، هل "الأدب" تنطبق عليه صفة الموسوعية؟

بالنسبة لابن قتيبة أو قدامة بن جعفر فهم ينظرون إلى الأدب بنظرة أكثر عملية باعتباره "Konversations lexikon" فالعامة تحتاج مرجعًا يمكن التعويل عليه في حاجياتهم التعليمية

---

(٣٣) ذكر ابن قتيبة في مقدمة كتابه "أدب الكاتب": «فإني رأيت كثيرًا من كتاب زماننا كسائر أهله قد استطابوا الدعة واستوطأوا مركز العجز، وأعفوا أنفسَهم من كدِّ النظر وقلوبهم من تعب التفكر حين نالوا الدركَ بغير سبب، وبلغوا البغية بغير آلة، ولعمري كان ذلك فأين همة النفس وأين الأنفة من مجالسة البهائم؟ وأي موقف أخزى لصاحبه من موقف رجل من الكتاب اصطفاه بعض الخلفاء لنفسه وارتضاه لسره، فقرأ عليه يومًا كتابًا وفي الكتاب "ومطرنا مطرًا كَثُّ عنه الكلأ" فقال له الخليفة ممتحنا له: وما الكلأ؟ فتردد في الجواب وتعثر لسانه، ثم قال: لا أدري..... »، أدب الكاتب، تحقيق، محمد الدالي، (بيروت: مؤسسة الرسالة، د.ت.)، ص. ٩-١٠. (المترجم).

الأساسية، في الألمانية نسمي هذا النوعَ التأليف بـ"Nachschlagewerk"، أي كتاب مرجعي (reference-work).

هذا فعلًا متواضع بالمقارنة مع الموسوعة. هناك كلمات أكثر يمكن أن نفكر فيها مثل المجاميع (Sammelwerk) أو في المعجميات يمكن أن نتحدث عن قاموس المترادفات (thesaurus) [٣٤].

هل ينبغي علينا أن نتخلى عن هذا الاسم الطنان "موسوعة"، ونتريث أن نلقب به بعض العينات المختارة من الكتب، وذلك بسبب غموض بعض العناصر في الاسم نفسه والتي ينبغي علينا توضيحها؟

إن اعتبار الموسوعات أعمالًا مرجعية يتردد عليها الباحثون باستمرار، فهذا يجرُّنا إلى أن نأخذ بعين الاعتبار في تعريف "الموسوعة" الطابع العملي لها، إن أخذ هذا المعطى بعين الاعتبار يؤدي بنا للقول بأن الموسوعات كانت على مر الدوام ضروريةً؛ سواء في العصور الوسطى أو في أيامنا هذه، سواء في الشرق أو الغرب، رغم أن ظروف العمل قد تغيرت بشكل كبير.

هل علينا أن نفترض، كما نفعل دائمًا، أن المؤلفين المنتمين إلى العصور الوسطى الذين ذكرنا نماذج منهم يمثلون نموذج العالم المنقطع عن العالم، هذا النوع من المؤلفين والذين كانوا مبجلين في الغرب (على الأقل في أوروبا)، ولكن لم يعد له وجود في أيامنا هذه؟

يعتبر الصفدي معنيًّا بشكل كبير بهذا الكلام؛ لأننا ما زلنا نتوفر على مسودة كتابه **"الوافي بالوفيات"**، ويمكننا أن نرى بأم أعيننا كيف أن الصفدي اكتفى في بعض المواضع من كتابه بإدراج وُريقات من مواد علمية مكتوبة سلفًا، تلك المواد العلمية من المحتمل أن يكون الصفدي قد عثر عليها خلال رحلاته في سوريا ومصر.

ولكن من خلال تجربتي الخاصة، فالمجتمعات المركبة تحتاج نوعًا آخر من المؤلفين، وأقصد بهم "المنتج" وهو العالم الذي يمول أو يجتهد في البحث عن التمويل من أجل مشاريعه العلمية الطموحة.

ماذا عن العمري الذي توفي نسبيًّا شابًّا في عمر الثامنة والأربعين، والذي ترك إلى جانب كتابه «**مسالك الأبصار**» كتابًا آخر لم يسبق إليه وهو كتاب «**التعريف بالمصطلح الشريف**»؟

---

(٣٤) لا يمكن للمعجم أن يكون thesaurus إلا إذا كان المعجم يتضمن بُعدًا تاريخيًّا. من أجل العثور على "الكنز" على الواحد أن يحفر عميقًا، بالقدر الذي يكون التعبير المجازي يفرق بين "المحيط" الذي يشير إلى الاتساع أكثر من العمق.

هل كان باعتباره "ابن الناس" ميسورًا بما فيه الكفاية حتى يتحمل تكلفة اتخاذ مساعدين في البحث (والذين لم يشر إليهم بكل تأكيد)، كما فعل ليون كايتاني (Leone Caetani) الذي كان أميرًا على تيانو (Teano) وبعد ذلك دوقًا على سيرمونطيا (Sermontea) في إيطاليا، من خلال كتابه الكبير Annali dell' Islam [٣٥]، أو أنه كان سريعًا ونشيطًا، ولكن ليس في "الكتابة" (بمعنى التأليف) ولكن في الجمع؟

وماذا عن رشيد الدين الوزير عند الحكام الإيليخانيين مثل غازان خان وأولجايتو؟ لا يمكننا أن نتغاضى عن الشعور الذي ينتابنا بأنه بقدر أن كتابَ «**جامع التواريخ**» مهمٌّ باعتباره تاريخًا للعالم في حجم موسوعي، حتى إنه تعرض للصين وأوروبا، فإنه لم يقم بكتابة جله بنفسه؛ لأنه لم يكن يملك الوقت لذلك، فيبدو أنه كان عنده كُتاب "أشباح". ونسخ الكتاب وأدرج فيه منمنمات نفيسة ومكلفة، كل ذلك على نفقته.

أما بالنسبة لرسائله الكلامية إذا قُورنت بكتابه الموسوعي فقد كانت أقلَّ قيمة ولكن مهمة بالنسبة لمكانته، وقد وقف ماله على الوقف الشهير في تبريز[٣٦]، وعلماء عصره كانوا مدعوين لكتابة تقاريظ لكتابه، ولكنهم لم يجدوا أيَّ حرج في كتابتها[٣٧].

فهناك الكثير من الأمثلة، ولكن ما زال ينبغي علينا أن نكتشف، لقد استطاع جيهاني – المؤلف المفترض لموسوعة جغرافية - أن يُنهي تأليفَ كتابه، فقد كان وزيرًا عند الحاكم الساماني نصر الثاني بن أحمد (حكم من ٣٠١/ ٩١٤ إلى ٣٣١/ ٩٤٣)، وربما كان عنده فريقٌ من "الباحثين" تحت إمرته.

هذا الكتاب الجغرافي ميزته أنه يتعرض إلى البلاد غير الإسلامية، التي يعتبرها عالَمًا مجهولًا، ولأسباب عملية كان من المتعذر التجارة مع أو محاربة بلاد غير معروفة)، لذلك كان عليه أن يعدله ويوسعه في كل وقت، لذلك بعض أفراد أسرة جيهاني الذين كانوا بدوهم موظفين في الإدارة السامانية قد أضافوا بعض المواد إلى تلك الموسوعة الجغرافية.

---

(35) Cf. G. Levi Della Vida, **Fantasmi ritrovati** (Venice 1966), p. 19ff: "La soffitta delle Botteghe Oscure."

(٣٦) ينظر كتابي:

Der Wesir und seine Gelehrten, Wiesbaden 1981 (Abhandlungen für die Kunde des Morgenlandes XLV 4); وكذلك Birgitt Hoffmann, **Waqf im mongolischen Iran: Rashìduddìns Sorge um Nachruhm und Seelenheil** (Stuttgart 2000).

(٣٧) يقارن بـ:

F. Rosenthal, "«Blurbs» (taqariz) from fourteenth-century Egypt", in: Oriens 27–28 (1981): 177ff.

بالنسبة لطبقة الكتاب كانت الموسوعة تقارب العالم الذي يديرونه، لذلك كانت الموسوعة تحتمها ضرورة مهنية. ونجد كتاب «**البدء والتاريخ**» لمطهر بن طاهر المقدسي يستحق مزيدَ بحث بهذا الخصوص[38]. فقد عمل عند أحد الحكام السامانيين في إقليم سستان في بست، وكتابه ذو الحجم المتوسط والذي طبع في ست مجلدات، يتضمن التاريخَ والجغرافيا وكثيرًا من الكلام المعتزلي متضمنةً مع الفلسفة والكسمولوجيا اليونانية، وكذلك معلومات مجهولة المصدر عن بعض الأديان الأخرى وحضاراتها بالإضافة إلى (حد كبير تقليدي ليس فيه جديد)، عرض لأهم الفرق الإسلامية أو "heresies" أو "Konfessionskunde" كما درج على تسميتها رودولف ستروتمان[٣٩] (Rudolf Strothmann).

ورغم العنوان التقليدي للكتاب إلا إنه يتضمن خلطًا عجيبًا للمعارف الأصيلة بالمعارف الأجنبية. يقول ابن طاهر المقدسي: «فالناظر في هذا الكتاب كالمشرف المطلع على العالم»[٤٠]. وباعتباره مؤرخًا، فالمقدسي كان أكثر عالمية، لكنه أقلُّ تفصيلًا بالمقارنة مع الطبري

في جميع الأحوال كان المقدسي ملاحظًا دقيقًا وكان مفكرًا مستقلًا – عربيًا (هل كان مقدسيًا؟) في خدمة الإيرانيين، كما كان الطبري فارسيًا يؤلف لجمهور عربي في العراق.

وينبغي التنبيهُ على أن هؤلاء المؤلفين الذين ذكرناهم عاشوا في عالمٍ لم يكن يعرف الطباعة، والمعرفة كانت متداولةً بكثرة والسعي في طلب العلم تم الحث عليه دينيًا من خلال الحديث «اطلبوا العلم ولو في الصين»[41].

كما أن المخطوطات لم تكن متاحةً في كل وقت، والكتب كانت عرضةً للتلف، ويمكن أن تتعرض للهلاك في أي لحظة. فجمع حِكَم العصر ومعارفه حتى وإن كانت تلك المعارف غيرَ أصيلة كانت استثمارًا ثقافيًا.

---

(38) EI2 VII 762, where the work is called a “historical encyclopaedia”.

(٣٩) يبدو أن مصطلح "heresiography" الذي نميل إلى استعماله يبدو غير مناسب. كتاب مفتاح العلوم للخوارزمي المعاصر للمقدسي، وكذلك كان من الكتاب السامانيين، تضمن كذلك قائمة بالفرق الإسلامية.

(٤٠) "فالناظر في هذا الكتاب كالمشرف على المطلع على العالم"، البدء والتاريخ، ج.١. ص. ١٧. (ed. Huart)، بالنسبة للفكر اليوناني، فالمقدسي يرجع إلى كتاب لم يكن في متناول الجميع وهو:

Pseudo-Plutarch’s **Placita philosophorum** (cf. H. Daiber, Aëtius Arabus. Die Vorsokratiker in arabischer ـ berlieferung, Wiesbaden 1980

(41) Cf. F. Rosenthal, **Knowledge Triumphant** (Leiden 1970).

وبطريقة أُخرى يمكن القول: كان ذلك ضرورة. فهوية المجتمع كانت على المحك، وكذلك حضارته، لذلك كانت الوسائل لجعل الحضارة حيةً جد محدودة، ومنها ذلك النوع من الكتابات.

ذلك الانهماك والانشغال المعرفي يجد سندَه من الأخلاق الإسلامية التي تدعو إلى الكدِّ والمثابرة والمجاهدة، ولكن تلك المثابرة توجهت نحوَ معارف الماضي وليس نحو معارف المستقبل.

كما أن تلقي المعارف كان يتمُّ عن طريق واسطة اللغة العربية، ففي إيران (الهند فيما بعد) كانت الموسوعات وكذلك الشعر من المفروض أن يقدم للقارئ بالفارسية، كما أن الدوافع الآنية الباعثة على الاشتغال في الموسوعات كانت تتغير: فمن بواعث عملية مثلما هو الحال عند ابن قتيبة، إلى اعتبارات منهجية كما هو الحال عند الفلاسفة، وربما اعتبار الحنين ومشاكل الهوية كما هو الحال في الفترة المملوكية.

هذا التعدد في البواعث والمنجز يذهب بنا للقول إلى أن صياغة تعريف صارم لن يساعدنا في مهمتنا. ما نحتاجه هو تعدد في المصطلحات ومحاولة في التحقيب.

بالنسبة للموسوعية فهي نفسها ظاهرة تاريخية، والتاريخ هو عالم من المتغيرات ولكن القاسم بين تلك المتغيرات هو تلك الفكرة الخالدة، والتي تأبى أن تتغير، وهي أن بإمكان المعرفة أن تنجز شيئًا على أرض الواقع، هذه الفكرة هي التي تعتبر دافعًا من أجل نشر المعرفة وتشجيع القراءة؛ حتى بلغ الأمر ذروته مع اختراع آلة الطباعة على يد غوتنبرغ (Gutenberg). نعود ونطرح سؤالًا آخر: هل يمكن أن نعتبر الأنترنت موسوعة؟

في الوقت الحاضر تبدو الموسوعات بالأساس تضطلع بكونها أعمالًا مرجعيَّة للعلماء الذين يبحثون في غابة من الأحرف عن نتيجة عجزوا عن الوصول إليها. فنحن لسنا موسوعيين ولكن هل سبق فعلًا أن كنا كذلك؟ ولكن المشكل الأكبر هو أن المختص باعتباره متخصصًا ما زال متوقعًا منه أن يعطي أجوبة "موسوعية"، وهذا شيء من أساسه لن يستطيع ذلك المتخصص الوفاءَ به، وهذا ما أشار إليه السيد هوت (Monsieur Huet) بطريق الإشارة، ولكن من يعير أي اهتمام؟

قائمة المراجع والمصادر:

المصادر العربية:

- **ابـن بسـام، الذخـيرة في محاسـن أهـل الجزيـرة**، تحقيـق: إحسـان عبـاس، في ثمانيـة أجـزاء، بـيروت ١٣٩٩/ ١٩٧٩.
- **ابن قتيبة، أدب الكاتب**، تحقيق، محمد الدالي، بيروت: مؤسسة الرسالة، د.ت.
- **التوحيـدي، أبـو حيـان، الإمتـاع والمؤانسـة**، تحقيـق، أحمـد أمـين، وأحمـد الزيـن، (القاهـرة: ١٣٧٣/١٩٥٣).
- **الرازي، فخر الدين، جامع العلوم**، بومباي: ١٩٠٦ وطهران: ١٣٤٦/ ١٩٦٧.
- رسـيوس، **تاريـخ العالم** تحقيق: عبد الرحمن بـدوي. الترجمة العربية القديمة. (بيروت: ١٩٨٢).
- الموسوعة الفلسطينية ثلاث أجزاء، بيروت، ١٩٧٨. دمشق.

المراجع الأجنبية:

- B. Radtke, **Weltgeschichte und Weltbeschreibung im mittelalterlichen Islam;** Beirut 1992 (Beiruter Texte und Studien, 51).
- Birgitt Hoffmann, **Waqf im mongolischen Iran: Rashìduddìns Sorge um Nachruhm und Seelenheil** (Stuttgart 2000).
- **Encyclopaedia Iranica,** 6 (1993): 651 f. s. v. Danes-nama (H. Dabashi).
- F. Rosenthal, "«Blurbs» (taqariz) from fourteenth-century Egypt", in: Oriens 27–28 (1981):
- F. Rosenthal, **Knowledge Triumphant** (Leiden 1970).
- Friedrich Dieterici, **Die Abhandlungen der Ichwan as-safa' in Auswahl zum ersten Mal aus arbischen Handschriften herausgegeben** (Leibzig 1886)

- G. Levi Della Vida, **'La traduzione araba delle storie di Orosio', in: al-Andalus** 19 (1954)
- G. Levi Della Vida, **Fantasmi ritrovati** (Venice 1966)
- H. H. Biesterfeldt, "Medieval Arabic Encyclopedias of Science and Philosophy", in: St. Harvey (ed.), **The Medieval Hebrew Encyclopedias of Science and Philosophy** (Dordrecht 2000)
- H. Kilpatrick, **" A Genre in Classical Arabic Literature: the adab Encyclopaedia ",** in: Proceeding 10th Congress UEAI, Edinburgh (1982)
- Joseph van Ess, **Der Wesir und seine Gelehrten,** Wiesbaden 1981 (Abhandlungen für die Kunde des Morgenlandes XLV 4);
- Joseph van Ess, **Theologie und Gesellschaft im 2. Und 3. Jahrhundert Hidschra** (Berlin 1991- 1997)
- Marco Schöller, "Zum Begriff des «islamischen Humanismus»", in: ZDMG 151 (2001)
- **Paul Heck, The construction of Knowledge in the Islamic Civilization** (Leiden: 2002)
- Pierre Daniel Huet (1630-1721) ; cf. Huetiana ou pensées divers de M. Huet (Paris 1722)
- Pseudo-Plutarch's **Placita philosophorum** (cf. H. Daiber, Aëtius Arabus. Die Vorsokratiker in arabischer ـberlieferung, Wiesbaden 1980
- Syrinx von Hees ,Enzyklopadie als Spiegel des Weltbilds. Qazwini's Wunder der Schopfung, eine Naturkunde des 13. Jahrhunderts (Wiesbaden 2002)
- U. Haarmann, « **Vater und Sohne im Herrschaftssystem der Mamluken**», in: Berliner Wissenschaftliche Gesellschaft, Jahrbuch 1995

جميع الحقوق محفوظة © ٢٠١٨

All rights reserved © 2018